قراءة نسويّة في الحراك الشبابي الفلسطيني في مناطق الـ 48

همّت زعبي وفداء شحادة*

إن وقفة سريعة عند التغطية الإعلامية لنشاطات تتناول الحراك الشبابيّ الفلسطينيّ، في السنوات الأخيرة، تظهر بشكل جليّ حضورًا، لا يستهان به، لشابات في هذا الحراك. وهذا يدل بالضرورة على حضور للشابات في الحيز العام، وعلى زيادة في حضورهن في الساحة السياسية الاجتماعية الفلسطينية. غير أن هذا الحضور يستحضر عدة أسئلة وقضايا تستحق البحث.

فعلى سبيل المثال، قد يثير هذا الموضوع أسئلة عن نوعيّة هذه المشاركة، وعمّا إذا كان حضور الشابات يعني بالضرورة أنهن شريكات متساويات في هذا الحراك، وعمّا إذا كان هذا الحضور يساهم في تغيير علاقات القوة المهيمنة على أساس النوع الاجتماعي في مجتمعنا. بكلمات أخرى: هل مشاركة الشابات في الحيّز العام عمومًا، والحراك الشبابي على وجه الخصوص، تساهم في تحويل شريحة الشباب الناشطة في الساحة الفلسطينية، إلى شريحة أقل ذكورية وأبوية من المجتمع عمومًا؟ وقد نتساءل: هل يعني وجودهن، بالضرورة، إحداث تغيير في مضامين هذا الحراك وأَجِنْدته؟ وهل وجود شابات من بين الناشطين يعني بالضرورة نَسْوَنَة هذا الحراك؛ من خلال تحويل هذا النضال إلى حراك يحمل فكرًا نسويًّا؟ كذلك سنحاول، من جهة ثانية، تسليط الضوء على التحديات التي تواجهها الناشطات في هذا النوع من الحراك.

بالطبع نحن لا ندّعي أننا نجيب، في هذه المقالة، عن هذه الأسئلة كافة، ولكننا نسعى من خلالها إلى مناقشة بعض الأفكار حول حضور الشابات في الحراك الشبابي الفلسطينيّ، وفتح باب النقاش وتسليط

الضوء على قضايا قد تكون مغيّبة عن الخطاب العام في هذا الموضوع. وسنستند إلى تجارب اطّلعنا عليها و/ أو كنا شريكات فيها.

كذلك إننا نتوخى الحذر من التعميم، ونعي أن الحراكات التي شهدها الداخل الفلسطيني في السنوات الأخيرة تتمايز في هذه المسألة، كما هو الحال في مسائل أخرى، وهذا يعود إلى أسباب وظروف سوف نتوقف عند بعضها في هذه المقالة. ومع هذا، وعلى الرغم من التباين، ما زال بإمكاننا أن نشير إلى التشابه بين معظم الحراكات في ما يتعلق بهذه المسألة.

كانت الشابات في صدارة الحراكات، وكانت من المجموعة المبادرة والمنظمة وفي الصدارة في المظاهرات المختلفة، ونالت نصيبها من عنف الشرطة واعتُقِل بعضهنّ في كثير من الحالات. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يركّز الإعلام العبريّ على هذا الجانب، فكان هذا الحضور في نظر المستعمر الأبيض مشهدًا غير مألوف، كَسرت من خلاله الشابة الفلسطينية النظرة التقليدية التي عرفها بها، فلم تكن تلك المنصاعةَ والمطيعة أو القابعة في البيت جراء القمع الذكوري في مجتمعها، بل وقفت الى جانب الشاب ليواجها معًا محاولات سرقة الأرض وقمع المظاهرات ومحاولات تطويع وخفض سقف تطلعات جيل الشباب.

وربما لم يكن من قبيل المصادفة، كذلك، أن استهدفتها الشرطة والوحدات الخاصة في المظاهرات، ففي كسرها لصورتها التقليدية إشارة إلى تغيُّرٍ ما في العلاقات الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني؛ من مجتمع تقليدي إلى مجتمع يعاد فيه ترتيب العلاقات الاجتماعية بعيدًا عن العائلية والذكورية، وفي هذا بحدّ ذاته تحدٍّ واضح لأنماط اجتماعية سعت المؤسسة إلى تعزيزها وإعادة بنائها في المجتمع الفلسطيني منذ النكبة، بغية تسهيل مهمة السيطرة عليه وضمان تخلفه.

كذلك لفت حضورُها الإعلامَ المحلّيّ العربيّ. وعلى الرغم من أن التشديد على حضورها إعلاميًّا قد ينبع من نظرة ذكورية في الإعلام المحلّيّ، الذي يحاول "تجميل" الخبر من خلال تزويده بصورة لشابات متظاهرات، وفي هذا استعمال تَشْييء لها، خاصة أن صورها برزت ولكن صوتها في المقابلات وفي

التغطية الإعلامية كان أقل بروزًا. إلا أننا نرى جانبًا إيجابيًّا في هذا أيضًا، ونعتقد أن هذه الصور تساهم في تطوير نموذج إيجابي للجيل الشاب، ذلك الذي يستمد معظم علاقاته بالعالم الخارجي من وسائل الاتصال الحديثة. فها هو يشهد مظاهرات تتصدرها الشابات ويشاركن في خط نضالي مشترك مع سائر شرائح مجتمعهنّ، بعكس الصورة النمطية التي اعتادها في الماضي. وهذا جانب من جوانب التغطية الإعلامية الذكورية إيجابيّ من الجدير الإشارة إليه.

مع هذا، وعلى الرغم من التغيير المحتمل الذي قد تحمله هذه الظاهرة في وعي الجيل الشاب، ولا سيّما من خلال صور تكسر أفكارًا نمطيّة داخل المجتمع الفلسطينيّ وخارجه، نود العودة إلى السؤال المتعلّق بما إذا كانت مشارَكة الشابات تساهم بالضرورة في جعل الحراك أقل ذكورية، وبما إذا كانت هذه المشاركة تعني أيضًا نَسْوَنَة هذا الحراك. الإجابة عن هذين السؤالين مركب، ومن الصعب الإجابة عنهما إجابة قاطعة. وبالرغم من هذا، نعتقد أن انعدام حساسية جندرية أوّليّة ما زال مهيمنًا حتى على مشهد الحراكات الشبابية. فعلى سبيل المثال، لا تأخذ المجموعات المبادِرة في الاعتبار خصوصيّة مجتمعنا في تنظيمها للاجتماعات التنظيمية، فتعقد الاجتماعات -في المعتاد- في ساعات متأخرة، وقد تُعْقَد في أماكن يصعب الوصول إليها بالمواصلات العامة، وبهذا -ودونما قصد أو نيّة مسبقة- تساهم هذه الظروف في جعل مشارَكة الشابات صعبة، وتجعلها مقتصرة على "نخبة" المجتمع، متمثّلة في شابات يمتلكن وسائل نقل خاصة، وَ/ أو يدرسن في الجامعات وتسمح لهن ظروفهن الاقتصادية والعائلية بالسكن خارج البيت -وهكذا يجري إقصاء غالبية شابات مجتمعنا.

بالإضافة إلى ذلك، لو استعرنا من الحركات النسويّة نضالها ضد الفصل بين الحيّز العام كحيّز سياسي، والحيّز الخاص كحيّز اجتماعي /شخصي /عائلي، في محاولة منها لتحقيق تغيير جوهري في القيم المجتمعية، باتجاه مساواة النوعين المجتمعين ومشاركة متساوية للحيّزات التي يعيشونها، محاولين من خلال هذه الاستعارة أن نحلل الحراك الشبابي من وجه نظر جندرية، لوجدنا أن فشلاً مشابهًا أصاب الحراك الشبابي الفلسطيني. ففي حين نجحت الحركات النسويّة، عمومًا، في إخراج النساء إلى الحيّز

العام، لم تنجح في إدخال الرجال إلى الحيّز الخاصّ. نجد أن الحراك الشبابي الفلسطيني عامة أعاد بناء النمط نفسه. فخرجت الشابات إلى الحيز العام، وحاولن بكل قواهن المشاركة فيه بشكل كامل، فكن من المبادِرات والمنظِّمات والمشارِكات في النشاطات السياسية العامة، وكذلك الأمر في النشاطات السياسية الاجتماعية النسويّة. في المقابل، لم يذوّت الشباب ضرورة حمله للهمّ الاجتماعي عمومًا، والنسوي على وجه الخصوص، كجزء من مشروعه السياسي. وهكذا بقيت النشاطات التي تحمل طابعًا اجتماعيًّا خِلْوًا من مشاركة الشباب؛ على نحو ما كان في مظاهرات قتل النساء، أو نشاط "جبارات في وجه الجرافات" الذي بادر اليه المنتدى النسوي الفلسطيني أيام النضال ضد "مخطط برافر"، في محاولة منه لتسليط الضوء على معاناة النساء جرّاء هذا المخطط في النقب، ففي الحالتين غاب الشباب إلا في ما ندر.

قد لا تستقيم جميع الحراكات تحت هذا التحليل على نحوٍ تام. وكما أسلفنا، قد تساهم خصوصية الحراك في تمايز مجموعة عن أخرى. فلنأخذ، على سبيل المثال، حركة "خطوة" في مدينة اللد، الحركة التي بادر إلى اقامتها مجموعة شابات وشباب في مدن المركز، في محاولة منهم تسليط الضوء على قضايا هذه المدن، والتي تغيب بصورة عامّة عن الساحة السياسية الفلسطينية العامة. تميزّت هذه المبادرة بشراكة شبه تامة من الشابات في المبادرة والتنظيم وفي النشاطات ذاتها. ولعل تغلّب عدد الشابات على الشباب في الحراك مكّن من تغييرٍ ما في العلاقات الجندرية في المجموعة، هذا بالإضافة الى كون هذا الحراك محليًّا، والمقصود أن معظم الناشطين -والناشطات على نحوٍ أخصّ- معروفون للمجتمع نفسه. وقد ساهم هذا في إعطاء الشابات دعمًا اجتماعيًّا وعائليًّا ممّا سهّل عليهنّ الانخراط في الحراك على قدم المساواة. ولقد سهّلت عملية عقد الاجتماعات في بيوت الناشطين وبضيافة العائلة والأهل، إضافة إلى القرب السكني للمشاركين والمشاركات، منالِيّةَ الشابات للاجتماعات التنظيمية.

لم تكن حركة "خطوة" الاستثناءَ الوحيد على تحليلنا، ومن المهم هنا الإشارة إلى نشاط جرى في يافا عام 2013، فيه جمعت مجموعة من الناشطين والناشطات بين النضال السياسي الفلسطيني والعربي، من

جهة، وتحدت الفصل بين النضال من أجل الحقوق الفردية والنضال من أجل الحقوق الجماعية، من جهة أخرى، وكان هذا في وقفة تضامنية مع النساء في مصر، ضد التحرشات الجنسية خلال الثورة المصرية. وتضمّنت الدعوة التي عُمّمت للنشاط -في ما تضمّنت- العبارات التالية: "في الوقت الّذي يتواجد فيه أبناء شعبنا وخاصّة أسرانا وأسيراتنا الفلسطينيات في خضمّ معارك الحُرّيّة، كلّ نساء فلسطين ستنتفض من أجل الحرّيّة وتحرّر الجسد، فهذا الجسد لي، وهذه الأرض لي، وهذا الهواء الرطب لي". وفي هذا الحدث العينيّ، شارك الشبّان إلى جانب الشابات في تسييس للمعركة النسوية ونَسْوَنة العمل السياسي.

حاولنا في هذه المقالة القصيرة قراءة الحراك الشبابي من وجهة نظر نسوية، متطرّقات إلى المُناخ المهيمن، ومشيرات إلى تغيير ما يحدث على هامشه، على أمل أن يتوسع هذا الهامش لأنه ضروري للوصول إلى تغيير اجتماعي سياسي واسع.

* **فداء شحادة**، طالبة للقب الثاني في تخطيط المدن، ناشطة سياسية ونسوية، من مؤسسي حركة "خطوة" الشبابية في اللد والرملة وجمعية "نبني أساسات" لتطوير وبناء مشاريع سكن للشباب الفلسطيني.

* **همّت زعبي**، ناشطة نسويّة وطالبة لقب ثالث في العلوم الاجتماعية في جامعة بن غوريون - بئر السبع.